



كتابة على الجدران في وسط بيروت. حقوق ملكية الصورة: بابلو توسكو/منظمة أوكسفام 2021.

خطة سحرية من التقشف ومعالجة الفقر

سرديات الاستئثار السياسي واللامساواة
في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

ديانا كلاس

منظمة أوكسفام

لظالما دعمت السرديات السائدة التي تعزز النمو الاقتصادي على حساب مؤسسات الدولة والخدمات الاجتماعية الأساسية نموذجًا نيوليبراليًا من الاستئثار والتقشف في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويؤدي ذلك إلى تفاقم في الاستئثار السياسي واللامساواة ويتبلور في بيئة عامة تتسم بالحصار ملكية وسائل الإعلام وتقلص الفضاء المدني. من المهم أن تسعى حركات التغيير إلى فهم السرديات السائدة من أجل تحديها وتحويلها. وبالأدوات المناسبة، يمكن لمنظمات المجتمع المدني والناشطين/ات والمؤثرين/ات ووسائل الإعلام البديلة أن تبدأ في تغيير الأساطير والمعتقدات التي توطر النقاش الاجتماعي والاقتصادي وتحدد مسبقًا الخيارات السياسية المقبولة على أنها ممكنة ومشروعة، وتلك التي لا يمكن قبولها.



OXFAM

ملخص تنفيذي

على مدى عقود، تكبدت بلدان منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ديوناً ضخمة مع تقشف متزايد. وكان الثمن الذي دفعته مقابل تأمين ملاءتها أمام الدائنين الأجانب هو تدابير التقشف الشديدة والضرائب التنازلية، التي وضعت العبء المالي على أشد الناس ضعفاً، وتركت الملايين من دون خدمات أساسية ولا حماية إجتماعية. إن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هي المنطقة الوحيدة في العالم التي ازداد فيها الفقر المدقع خلال العقد الماضي. وقد قابل هذا الواقع القاسي برامج للتخفيف من حدة الفقر بدلاً من تأمين الحماية الاجتماعية الشاملة التي تعتبر مرتفعة الكلفة.

وتأتي السرديات السائدة خلف هذا النموذج النيوليبرالي للتقشف ونمو القطاع الخاص على حساب تراجع القطاع العام. وتروج برامج صندوق النقد الدولي بشكل خاص لهذه السرديات في بلدان مثل مصر والأردن وتونس. ويبدو أن هذا النموذج يعزز موازين القوى القائمة السائدة داخل البلدان، ما يؤدي إلى مزيد من تراكم السلطة والموارد في أيدي قلة من الأشخاص. إن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هي واحدة من أكثر مناطق العالم تفاوتاً في الثروة، حيث يمتلك 37 مليارديراً ما يساوي ثروة النصف الأفقر من السكان البالغين في المنطقة¹.

وتشكل السرديات السائدة خطاباً مهيماً يخدم أيديولوجية تستفيد منها مجموعة اجتماعية واحدة. وتسمح الأطر الأيديولوجية للأنخب بالتأثير في العملية السياسية والسردية من خلال ضمان قبول الأفكار التي تضيف الشرعية على السياسات العامة التي تخدم هذه النخب بشكل عام. فقد وضعت هذه السرديات إطاراً لسرد القصص – وهو عبارة عن "نظام حقيقة" – يحدد نوع الخطاب المقبول بوصفه صحيحاً، ونوع الأشخاص أو مصادر المعلومات المقبولين كمرجعيات لهذه الحقيقة. فالسرديات هي أداة للسلطة.

المهم هنا هو ليس فقط فهم السرديات السائدة وإنما كذلك تحديها وتحولها. وبالأدوات الصحيحة، يمكن لحركات التغيير إدخال قواعد جديدة لتحديد مدى شرعية الحقيقة في الخطاب العام والضمير الجماعي. ومن أجل البدء بتغيير السردية، من المهم أن نفهم كيف يتم بناء السرديات المهيمنة ومما تتشكل.

السردية السائدة: لدع القطاع الخاص يتولى زمام الأمور

تعزز السردية الاقتصادية السائدة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التقشف والاستثمار الخاص كمحركين للنمو الاقتصادي. وهي تستند إلى رسائل بسيطة تنقلها بسهولة وسائل الإعلام الرئيسية. وترى منظمات المجتمع المدني من مختلف أنحاء المنطقة أن هذه الرواية تقلل من الوعي الطبقي وتلقي اللوم على شرائح المجتمع المحرومة في الأزمات الاقتصادية. كما أنها تشيد بالمساعي الفردية مع التركيز على الجدارة، لتصرف النظر عن الدور الذي تلعبه أوجه اللامساواة الهيكلية ورأس المال الثقافي. وهي أخيراً سردية تولد مشاعر الخوف وفقدان الأمل.

وتستند هذه السردية إلى مجموعة من الحجج والمعتقدات التي تحدد أطر النقاش حول السياسات العامة. وتؤكد أنه لا يوجد بديل للتقشف بسبب ارتفاع نسبة الدين إلى الناتج المحلي الإجمالي. فهي تصوّر الدولة على أنها فاسدة بطبيعتها وسيئة في ممارسة الأعمال التجارية، في حين تسوّق الحلّ المبني على النمو الذي يقوده القطاع الخاص وخلق فرص العمل، إلى جانب تدابير التخفيف من حدة الفقر. كما تزعم هذه الرواية أن العجز العام ناجم عن التضخم والفساد في القطاع العام (لصرف نظر الجمهور عن العبء المالي الحقيقي الناجم عن خدمة الدين)، وأن ما يهيم بالفعل هو ليس حجم الدين وإنما حجم الاقتصاد، وأن الضرائب على الدخل والثروة من شأنها أن تبعد المستثمرين، لذا تدعم هذه السردية فرض الضرائب على الاستهلاك.

ويلعب صندوق النقد الدولي دوراً مهماً في تشكيل هذه السرديات السائدة، سواء من خلال مساهمته في الفكر الاقتصادي العالمي أو أكثر تحديداً من خلال شروط الإقراض والمشورة السياسية للبلدان. وقد حدث تحول في الآونة الأخيرة في موقف صندوق النقد الدولي باتجاه الاعتراف بأن السياسات النيوليبرالية قد ساهمت في زيادة حدة الانقسام بين الأغنياء والفقراء. ولكن لم يتم بعد ترجمة هذا التحول عملياً في عمل صندوق النقد الدولي على المستوى المحلي، والذي لا يزال متجذراً إلى حد كبير في السردية النيوليبرالية الكلاسيكية.

خطاب استثنائي: الفضاء المدني وانحصار ملكية وسائل الإعلام

تلعب ملكية وسائل الإعلام والى جانبيها الإعلان دوراً مهماً في تضخيم السرديات السائدة. وثمة انحصار كبير لملكية وسائل الإعلام والانتماء السياسي في بلدان مثل لبنان ومصر وتونس والمغرب، وينعكس ذلك على المحتوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي السائد في وسائل الإعلام الرئيسية.

كما تستخدم الحكومات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أدوات أخرى من أدوات السلطة لضمان فرض خطاب واحد على المجتمع، مثل ممارسة السيطرة السياسية على نقابات العمال. ويندرج ذلك ضمن إطار فضاء مدني محدود، وهو في حد ذاته مؤشر على هيمنة الحكومات على الخطاب العام في معظم بلدان المنطقة. ويصنّف مرصد سيفيكوس مونيتر الفضاء المدني الوطني في مصر على أنه "مغلق" وفي الأردن ولبنان والمغرب وتونس على أنه "مغلق" ².

حان الوقت لإستعادة السردية!

في هذا السياق الذي يتقلص فيه الفضاء المدني وتهمين النُخب على وسائل الإعلام الرئيسية، تسعى منظمات المجتمع المدني والناشطون/ات والمؤثرون/ات والإعلام البديل إلى سدّ فجوة مهمة في الخطاب العام، وهم يفكرون باستمرار في كيفية التأثير في ضمير جماعي شكلته عقود من الاستئثار السياسي. ويعني العمل على تغيير السردية تغيير نظام الحقيقة السائد، والأساطير، فضلاً عن قيم الناس ومعتقداتهم، وتفكيرهم اليومي، الذي يوظف النقاش الاجتماعي والاقتصادي، ويحدّد سلفاً الخيارات السياسية المقبولة على أنها ممكنة ومشروعة، وتلك التي لا يمكن قبولها.

الخطوة الأولى في تغيير السردية هي تفكيك السردية السائدة. ويشمل ذلك فهم الدور الذي تلعبه هذه السردية في الاستئثار السياسي والكشف عن شبكات المصالح التي تستفيد منها، وتحليل وسائل الإعلام وأدوات الخطاب التي تُستخدم لنقل هذه السردية، وفضح الحجج المقّمة لصالحها.

أما الخطوة الثانية فتتمثل في العمل على استعادة السردية من خلال بناء خطاب جديد. ويمكن بناء سردية مضادة قوية عندما يتجاوز العمل على تحويل السردية مجرد تفكيك السردية السائدة إلى الترويج لخطاب وإطار فكري مختلفين. ويتكون ذلك من جهد طويل الأمد لتغيير الثقافة وتهيئة الأرضية لعقلية جديدة أي عقد اجتماعي جديد مع منظور جديد للحقوق الاجتماعية والاقتصادية، كما هو موضح أدناه.

- **بناء خطاب جديد.** ويعني ذلك اختيار إطارات جديدة وتحديد رسائل جديدة واضحة، وبناء مفردات جديدة (تعابير، كلمات رنانة) لسردية جديدة تخاطب المخيلة العامة وتخلق مجالاً جديداً من الإمكانيات في الضمير الجماعي، ومواءمة الخطاب العام بين الناشطين/ات والحركات والمنظمات، وتحديد الجمهور الرئيسي المستهدف والأصوات المؤثرة الرئيسية لحمل الرسالة.
- **تحدي نظم الحقيقة وتوسيع نطاق الممكن.** ويعني ذلك إيجاد نقطة جذب عاطفي قوية من شأنها أن تساعد الناس على استيعاب الرواية الجديدة على سبيل المثال، من خلال ربط قضايا الاقتصاد الكلي بكيفية ظهورها في تجارب الناس اليومية. ويمكن القيام بذلك من خلال التحالفات مع وسائل الإعلام البديلة والصحافيين. ومن المهم أيضاً الحدّ من الخوف من التغيير والخوف من المجهول، وخلق اعتقاد قوي وموثوق به بأن التغيير ممكن.
- **الإحصاءات.** من الضروري تطوير موقف مشترك بشأن مؤشرات اللامساواة المتعددة الأبعاد والمتعددة الجوانب والمنهجية الإحصائية والضغط من أجل اعتمادها من قبل أصحاب القرار.
- **والخطوة الثالثة هي العمل على تهيئة بيئة مواتية للتغيير الهيكلي الذي يحدث تحوُّلاً اجتماعياً حقيقياً.** ويستلزم ذلك بذل جهد لبناء قوى اجتماعية مضادة حقيقية وإحداث تصدعات في النظام من شأنها أن تسمح تدريجياً للسرديات المضادة بالوصول إلى الجمهور الأوسع وإحداث فرق.
- **إقران الأقوال بالأفعال:** تطوير وجود ميداني مهم، من خلال بناء جهود شعبية قوية لا توصل الرسالة فحسب، بل تطبق أيضاً قيم النموذج الاجتماعي والاقتصادي العادل والمنصف على نطاق صغير.
- **بناء السرديات العابرة للحدود.** ويمكن أن يستفيد العمل على تغيير السردية من الشبكات والتحالفات والحملات الإقليمية والدولية التي لا تسعى فقط إلى حشد الرأي العام الدولي بشأن قضايا الديون والتّشف في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل، بل تتجاوز ذلك لإيجاد سرديات مشتركة توحد الناس من كلا الجنوب والشمال العالميين.

شكر وتقدير

كتبت هذه الورقة ديانا كلاس. وتقدر منظمة أوكسفام مساعدة كل من كريستينا روفيرا إزكيردو ونبييل عبود وهرنان كورتيس سابيز ونادية داعر ومنال وردة وأنا تشيرنونا ونهى المكاوي ويارا شوقي وسيف الدين بنتيلي وكاترين أونيل وهيلين بونتينغ في إنتاجها.

الهوامش

- ¹ الإسكوا. (2020). ضريبة تضامن لمعالجة تأثير جائحة كورونا على الفقر في المنطقة العربية. https://archive.unescwa.org/sites/www.unescwa.org/files/20-00187_covid-19-policy-brief-en.pdf
- ² سيفيكوس مونيوتور. (2021). تصنيفات الفضاء المدني الوطني: 42 مصنف على أنه مفتوح، و40 مصنف على أنه ضيق، و46 مصنف على أنه معرقل، و45 مصنف على أنه مكبوت، و23 مصنف على أنه مغلق.

تقارير منظمة أوكسفام البحثية

تصدر تقارير منظمة أوكسفام البحثية بهدف تشارك نتائج البحوث والمساهمة في إثراء النقاش العام، والدعوة إلى تقديم التغذية الراجعة بشأن السياسات والممارسات الإنمائية والإنسانية. وهي لا تعكس بالضرورة مواقف سياسة منظمة أوكسفام. وتعود الآراء المطروحة للمؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رؤية منظمة أوكسفام.

لمزيد من المعلومات عن القضايا التي أثيرت في هذه الورقة، يرجى التواصل إلكترونياً على العنوان التالي advocacy@oxfaminternational.org.

جميع الحقوق محفوظة لمنظمة أوكسفام الدولية - تشرين الثاني/نوفمبر 2021.

إن جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة لهذا المنشور، ولكن يمكن استخدام نصّه مجاناً لأهداف المناصرة وتنظيم الحملات والتعلم والبحث العلمي بشرط ذكر المصدر بالتفصيل. ويطلب صاحب حقوق الملكية الفكرية أن يُحاط علماً بأيّ من هذه الاستخدامات بهدف تقييم الأثر. أمّا في ما يتعلق بالنسخ في أي ظروف أخرى أو إعادة استخدام هذا المحتوى في منشورات أخرى أو ترجمته أو أقلمته فلا بدّ من الحصول على إذن وقد يتوجب بدل مالي لقاء ذلك. للتواصل إلكترونياً: policyandpractice@oxfam.org.uk.

إنّ المعلومات الواردة في هذه الورقة صحيحة وقت إرسالها للنشر.

نشرته منظمة أوكسفام بريطانيا لصالح منظمة أوكسفام الدولية بالرقم المتسلسل: ISBN 978-1-78748-831-1 في تشرين الثاني/نوفمبر 2021.

DOI: 10.21201/2021.8298

Oxfam GB, Oxfam House, John Smith Drive, Cowley, Oxford, OX4 2JY, UK.

منظمة أوكسفام

منظمة أوكسفام هي اتحاد دولي يضم 21 منظمة مترابطة تعمل مع شركائها وحلفائها للوصول إلى الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم. معاً، نعالج أوجه اللامساواة للقضاء على الفقر والظلم، الآن وعلى المدى الطويل - من أجل مستقبل عادل. لمزيد من المعلومات، يُرجى مراسلة أحد مكاتب منظمة أوكسفام، أو زيارة موقعنا الإلكتروني على العنوان التالي www.oxfam.org.

أوكسفام إيبيس، الدنمارك (<http://oxfamibis.dk/>)
أوكسفام الهند (www.oxfamindia.org)
أوكسفام إنترمون، إسبانيا (www.oxfamintermon.org)
أوكسفام إيرلندا (www.oxfamireland.org)
أوكسفام إيطاليا (www.oxfamitalia.org)
أوكسفام المكسيك (www.oxfamexico.org)
أوكسفام نوفيب، هولندا (www.oxfamnovib.nl)
أوكسفام كيبك (www.oxfam.qc.ca)
أوكسفام جنوب أفريقيا (www.oxfam.org.za)
أوكسفام تركيا (KEDV) (<https://www.kedv.org.tr/>)
أوكسفام أمريكا (www.oxfamamerica.org)
أوكسفام أوتياروا (www.oxfam.org.nz)
أوكسفام أستراليا (www.oxfam.org.au)
أوكسفام في بلجيكا (www.oxfamsol.be)
أوكسفام البرازيل (www.oxfam.org.br)
أوكسفام كندا (www.oxfam.ca)
أوكسفام كولومبيا (lac.oxfam.org/countries/colombia)
أوكسفام فرنسا (www.oxfamfrance.org)
أوكسفام ألمانيا (www.oxfam.de)
أوكسفام بريطانيا (www.oxfam.org.uk)
أوكسفام هونغ كونغ (www.oxfam.org.hk)

